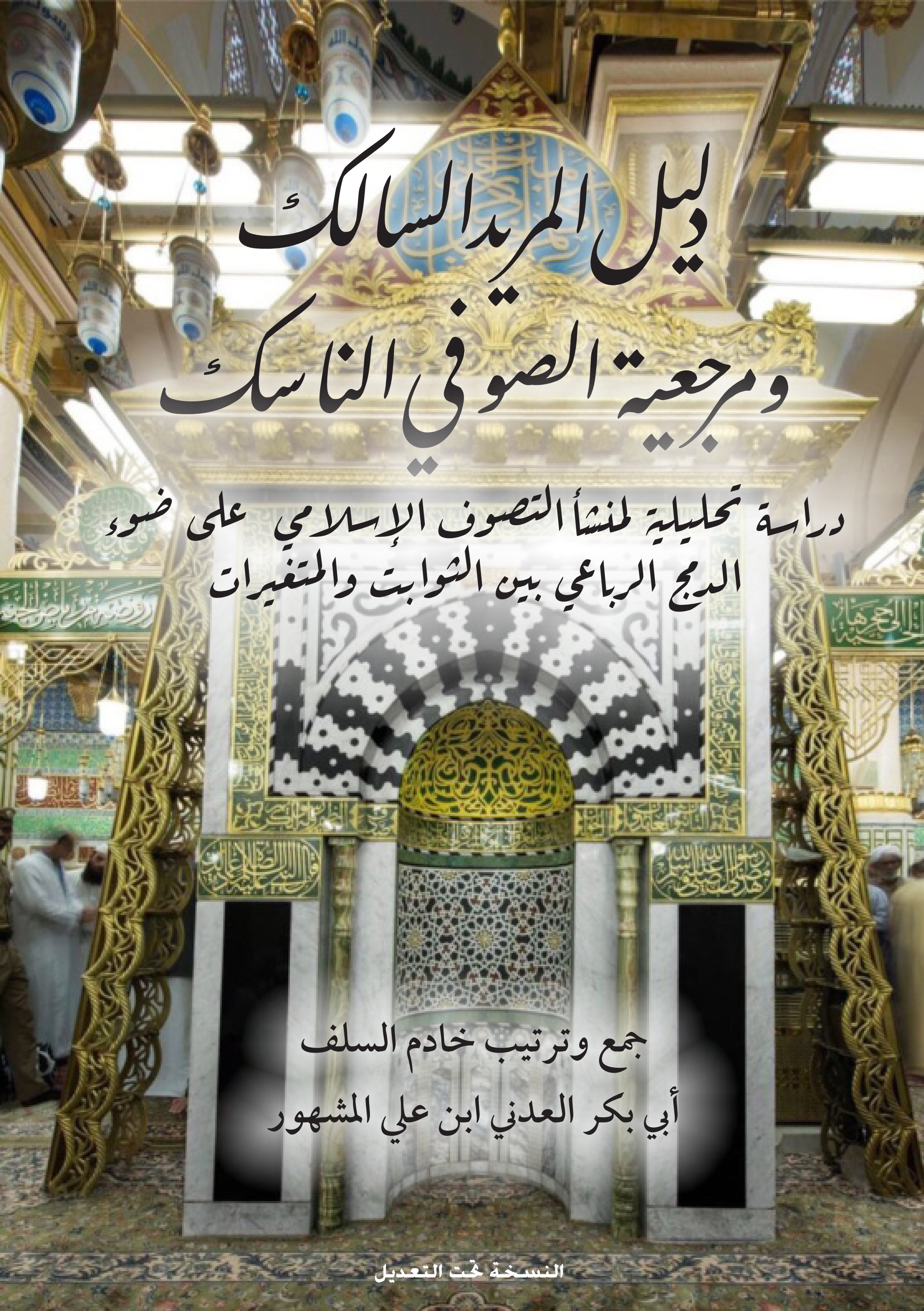


دليل المريد السالك ومرجعية الصوفي الناسك

دراسة تحليلية لمنشأ التصوف الإسلامي على ضوء الدمج الرباعي بين الثوابت والمتغيرات

جمع وترتيب خادم السلف
أبي بكر العدني ابن علي المشهور

النسخة تحت التعديل


بسم الله الرحمن الرحيم

المطلع القرآني

﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ
وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ
وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ
وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ
وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ
فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ
كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا
عَظِيمٗا﴾ [الأحزاب:٣٥]

المطلع النبوي

عن الحارث بن مالك الأنصاري أنه مر برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له:

« يا حارث كيف أصبحتَ؟» فقال: أصبحتُ مؤمناً حقًا ، قال : «انظر ما تقول فإن لكل حق حقيقة ، فما حقيقة إيمانك]؟» ، قال: ألستُ قد عَزَفَتْ الدنيا عن نفسي ، وأظمأتُ نهاري وأسهرتُ ليلي ، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، و كأني أنظر إلى أهل النار يتضاغَوْن - يعني يصيحون - ، قال: «يا حارثُ عرفتَ فالزَم» ثلاث مرات ،

أخرجه البزار والطبراني ، وفي رواية ابن عساكر: أنت امرؤٌ نوَّر الله قلبَه .. عَرَفْتَ فَالْزَمْ.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي شرف الأمة بالرسالة الفضلى وأرسل بها أشرف أنبيائه صاحب السيرة المثلى صلى الله عليه وآله وسلم في الآخرة والأولى وعلى من تبعهم بإحسان مترقيا في مراتب الإسلام والإيمان والإحسان إلى يوم الدين.

وبعدُ فعلم الإحسان يعد ركنا من أركان الدين التي عليها قوام القبول والرد وهو الركن الثالث في حديث جبريل المعروف لدى العلماء بحديث (أم السنة).

وقد لوحظ إهمال هذا العلم وركنه في حياتنا التعليمية المعاصرة سواء من حيث الممارسة أو من حيث العلم، ولذلك رأينا أن نحيي ما أمات الناس من سنة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم بتجديد دراسة الركن الثالث من أركان الدين مع تجديد أسلوب القراءة والدراسة له .. وخاصة بعد إلحاق الركن الرابع من أركان الدين بالأركان الثلاثة فصارت أركان الدين في هذه الدراسة أربعة:

- **الإسلام** وهو علم الشريعة.
- **الإيمان** وهو علم العقيدة.
- **الإحسان** وهو علم مراتب السلوك.
- **العلم بعلامات الساعة**: وهو العلم بالمتغيرات والمستجدات (علم فقه التحولات).

وكما هيأ الله لنا خدمة الركن الرابع وقواعده ومصطلحاته وتطبيقاته، فنحن اليوم نتناول (علم الإحسان) لإعادة أسلوب قراءته وقراءة ما تفرع عنه من العلوم والقيم والآداب المشروعة .. إلى جانب الاعتناء بما كتبه علماء السلوك من قواعد

ومصطلحات وتطبيقات في علم (التصوف) الذي هو فرع (الزهد) والزهد فرع علم الإحسان.

وبهذه الدراسة نعيد الفرع إلى أصله دون إفراط ولا تفريط لنعالج المشكلة التي نشأت في مجتمعاتنا المعاصرة حول مسمى التصوف وتعريفه وأصل منشأه .. وسلامة الأخذ به أو عدم ذلك..

وهذا أوان الشروع في المقصود:

أركان الدين الأربعة

تستقيم دراسة الدين الإسلامي على أربعة أركان(معالم ، مناسك ، عرى ، كما في روايات حديث جبريل) [1]:

١. الإسلام ، وهو علم الشريعة
٢. الإيمان ، وهو علم العقيدة
٣. الإحسان ، وهو علم مراتب السلوك والتصوف
٤. العلم بعلامات الساعة ، وهو علم فقه التحولات، متغيراتٍ ومستجداتٍ

ويجمع هذه الأركان الأربعة حديث جبريل المسمى بحديث (أم السنة) في وحدة موضوعية شرعية

حديث جبريل

هو الحديث المشهور بأم السنة ، وقد رواه مسلم **عن عُمَرَ بن الخطَّاب** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **قال : بينما نحن جُلُوسٌ عند رسولِ الله** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ **إذ طلع علينا رجلٌ شديدُ بياضِ الثِّيَابِ شديدُ سوادِ الشَّعَرِ لا يُرى عليه أَثَرُ السَّفرِ ولا يعرفُه منّا أَحَدٌ حتى جلس إلى النبيِّ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ **، فأسندَ رُكبَتَيهِ إلى رُكبَتَيهِ ووضعَ كفيه على فَخِذَيهِ وقال: يا مُحَمَّدُ أخبِرني عن الإسلامِ؟**

---

(١) وفي رواية الترمذي: «**معالم دينكم**» ، وعند أحمد : «**هذا جبريل أتاكم يعلمكم عرى دينكم**» ، وعند الطبراني: «**مناسك دينكم**» .

قال رسول الله ﷺ : «**الإسلام أن تشهدَ أن لا إله إلا الله ، وأنَّ مُحَمَّداً رسولُ الله ، وتقيمَ الصلاةَ ، وتؤتي الزَّكاةَ ، وتصومَ رمضانَ ، وتحُجَّ البَيتَ إن استطعَتَ إليه سبيلاً**» ، قال : صدقتَ . قال : فعجبنا له يسألُهُ ويُصدِّقُه ، قال : فأخبِرني عن الإيمانِ؟

قال : «**أن تؤمِنَ باللهِ ، وملائكته ، وكُتُبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقَدَر خيره وشَرِّه**» ، قال : صدقتَ ، قال : فأخبِرني عن الإحسان ؟ ، قال : «**أن تعبُدَ الله كأنَّكَ تراهُ ، فإن لم تكن تراهُ فإنَّه يراكَ**» ، قال : فأخبِرني عن السَّاعة ، قال : «**ما المسؤولُ عنها بأعلَمَ من السَّائل**» ، قال : فأخبِرني عن أماراتها ؟ ، قال : «**أن تَلِدَ الأمَةُ رَبَّتها ، وأن ترى الحُفَاةَ العُراةَ العالَةَ رِعاءَ الشَّاء يتطاولُون في البنيان**» .

قال : ثم انطلقَ فَلبثتُ مَلِيّاً ، ثم قال لي : «**يا عُمرُ أتدري مَن السّائلُ**» قالَ : قُلتُ : اللهُ ورسولُهُ أعلمُ ، قال : «**فإنه جبريلُ أتاكُم يُعلِّمُكم دينكم**» .

وفي رواية في مسلم أيضا: «**أَنْ تَخْشَىٰ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنَّكَ إِنْ لا تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»، وفي روايةِ مسند أحمد: «**الإِحْسَانُ أَنْ تَعْمَلَ لِلَّهِ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَرَهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**».

وفي رواية ابن بشران: قَالَ : فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ فَأَنَا مُحْسِنٌ ؟ قَالَ : «**نَعَمْ**» . قَالَ : صَدَقْتَ.

وفي هذا الكتيب سيكون موضوعنا هو الركن الثالث من أركان الدين (الإحسان): «**أن تَعبُدَ الله كأنَّكَ تراهُ ، فإن لم تكن تراهُ فإنَّه يراكَ**».

الإحسان ماهيته ومعناه وغايته

الإحسان معناه الاتقان .. والإتقان زيادة الابداع في الصنعة والقيام بكافة شروطها.

وغايته بلوغ أعلى درجات مراتب علم اليقين والتمكين والسير في طريق المجاهدة: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ ، والمحسنون هم أهل الإحسان .

تعريف الإحسان

إتقان العمل الصالح المشروع ظاهرا وباطنا على طريق الترقي في المأمورات

والتوقي عن المنهيات ، مع كمال المراقبة لله في السر والعلانية.

أركان علم الإحسان

لعلم الإحسان ركنان:

الأول: أن تعبد الله كأنك تراه: وهو أعلى مراتب الصديقية الكبرى في المراقبة لله من خلال تطبيق الأعمال الصالحة واجبة ومندوبة، ومفادها استشعار واستحضار معية الله تعالى كأنه يراه بعين قلبه من غير تشبيه ولا تجسيم ولا تعطيل ولا تكييف ، وهي مرتبة الصديقية الكبرى.

الثاني: فإن لم تكن تراه فإنه يراك: وهي الدرجة الأدنى من الأولى ومفادها حسن المراقبة لله تعالى مستشعرا أن الله يراه ومحيط به في طاعته وأعماله وحركاته وسكناته وظاهره وباطنه على عين الحقيقة.

تلازم الأركان الثلاثة (الثوابت)

بين علمي الإيصال وعلم الوصول

يطلق على علم الإسلام والإيمان والإحسان (مسمى الثوابت) وبها تعرف علوم الشريعة وأحكامها والعقيدة وأقسامها، ومراتب السلوك ومقاماتها، ولا ينفك ركن عن الآخر في سير العبد إلى الله تعالى .. بل بينهما تلازم على قسمين:

علما الإيصال: وهما علما الإسلام والإيمان.

علم الوصول: وهو علم الإحسان (التزكية).

علاقة الإحسان الشرعية بالأركان الأخرى

الإحسان علم الوصول إلى عين الحقيقة المرجوة بين العبد وربه، ويتحقق هذا العلم بصدق العمل في علمي الإيصال وهما الإسلام والإيمان.

فالإسلام: شريعة وأحكام.

والإيمان: عقيدة والتزام.

ولا يتحقق كمال علم الوصول (الإحسان) إلا بتحقق علمي الإيصال على الوجه الصحيح.

اندراج مصطلح التصوف في مفهوم الزهد والإحسان

علم التصوف

علم تفرع عن مفهوم الزهد في الإسلام والزهد فرع من علم الإحسان، والإحسان هو الركن الثالث من أركان الدين في حديث جبريل عليه السلام وتنطبق أركان علم الإحسان على مفهوم التصوف من كافة الحيثيات.

وبهذا التلازم الشرعي يصبح التصوف اسما ورسما على مطلب الزهد والإحسان.

موقع التصوف في التطبيق العملي بين الزهد والإحسان

الزهد أوسع معنى من التصوف، والتصوف أوسع تطبيقا وتقعيدا وتفريعا من الزهد، والتصوف فرع من فروع الزهد ، والزهد فرع من فروع علم الإحسان.

التصوف موقف شرعي متفرع عن علم الإحسان

كان ظهور مفهوم التصوف خلال مرحلة التابعين وتابع التابعين كموقف شرعي

متفرع عن مفهوم الزهد لحفظ الألسنة من الذم والأيدي من الدم بعد شمول الفتن ومضلاتها في مرحلتي الملك العضوض الأول والثاني، وقد أخذ بهذا المبدأ كافة علماء الشعوب بدءاً من الإمام علي زين العابدين الذي زهد في الحكم والأخذ بالثار ووضع العلم والدعوة إلى الله بديلا عمليا لإصلاح الشعوب، وسار أتباع الإمام علي زين العابدين على هذا المنهج متواترا سنده عنه إلى أولاده وأحفاده وتلاميذه الآخذين عنه الذين سلكوا مسلك السلامة دون إفراط ولا تفريط.

الإمام علي زين العابدين مؤسس منهج أهل النمط الأوسط ورائد مدرسة الزهد والتصوف

أهل النمط الأوسط اسم أطلقه الإمام علي رضي الله عنه على من نهج منهج الاعتدال في الفتن المضلة قبل قتله رضي الله عنه بقوله: (**خير الناس هذا النمط الأوسط، يلحق بهم التالي ويرجع إليهم الغالي**)، وفي رواية: (**العالي**) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، وقد شاهد الإمام علي رضي الله عنه خلال مراحل حياته ما طرأ من توجهات الإفراط والتفريط في مستوى الصراع الفكري والسياسي.

وكان أول النتائج أمام هذا الصراع المحتدم موقف الإمام الحسن بن علي في ترك موقع القرار وموقف وذريته من سادة الصلح[1] من بعده ومن تبعهم بإحسان، ثم موقف الإمام الحسين رضي الله عنه في تجنيبه الحرم صراع الذم والدم والخروج للإصلاح في أمة جده صلى الله عليه وآله وسلم.

كما تحقق هذا المعنى بموقف الإمام علي زين العابدين وذريته من بقية السيف وتلامذته المتخذين موقف الاعتدال المفضي إلى:

- حفظ اللسان من الذم

---

(١) أطلق مصطلح سادة الصلح على ذراري الإمام الحسن أخذا من قوله في خطبة التنازل: (إن الله هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا) ومن قول الإمام علي رضي الله عنه: بقية السيف أنمى ولدا وأكثر عددا.

- وحفظ اليد من الدم
- وحفظ القلب من الهم
- ونشر الدعوة إلى الله بالفم والقلم والقدم(١).

التصوف بين مرحلتين مرحلة الإمام علي زين العابدين والشيخ أبي القاسم الجنيد

منذ عهد الإمام علي زين العابدين والإحسان العملي متجه اتجاها سلميا ، يمثله موقف الإمام علي زين العابدين بعد آثار المعركة الكربلية التي استشهد فيها والده الإمام الحسين عليه السلام ومن معه من آل البيت الكرام في معركة غير متكافئة ، وحفظ الله من هذه الذرية الإمام علي زين العابدين وقد رأى ما رآه في تلك المعركة بأم عينه ، وكان يقول : إن يعقوب عليه السلام بكى حتى ابيضت عيناه على يوسف، ولم يعلم أنه مات، وإني رأيت بضعة عشر من أهل بيتي يذبحون في غداة واحدة، أفترون حزنهم يذهب من قلبي أبدا؟.

فلم ينهج بعد هذه المعركة بنهج المطالبة بالثأر .. المطالبة التي تبناها آخرون وجعلوها عقيدة وشريعة، بل أعرض عن ذلك كله وعاش من بعد ذلك ميالاً إلى الزهد عن الأخذ بالثأر أو المطالبة بالحكم ، مستعيضا عن ذلك بنشر العلم والعبادة والعزلة عن واقع الظلم والعدوان ، وكان موقفه أول موقف جسد معنى التصوف إلى موقف سلوك عملي يحفظ به لسانه من الذم ويده من الدم ، واتسع هذا الاتجاه الصوفي من بعده وظل يتنامى ويزداد في الآخذين بموقفه ، حتى صار التصوف ظاهرة فكرية بارزة كتب فيه العديد من كتاب تلك المرحلة وهم بين إفراط وتفريط واعتدال حتى ظهر الإمام أبوالقاسم الجنيد (٢٢١ – ٢٩٧ هـ).

---

(١) بالفم أي: بالدعوة إلى الله بالبلاغ، والقلم أي: بالتأليف والتصنيف، والقدم أي: بالسير في طريق الاقتداء والاهتداء.

الإمام الجنيد سيد الطائفة أول من وضع أنفاس التصوف المعتدل ومصطلحاته (١)

كان أول من وضع قواعد ومصطلحات وتعريفات التصوف سيد الطائفتين (أبو القاسم الجنيد) وترجع إليه ضوابط هذا العلم وأنفاسه وهو الذي أثبت أنه (لا مجافاة بين الحقيقة والشريعة)، ونفى عقائد الإفراط والتفريط التي اتخذها البعض مطعناً في التصوف وأتباعه، واعتنى بتربية المريد على منهج الاعتدال وإحياء منهج أهل النمط الأوسط.

وقد كان التصوف قبل ظهور الإمام الجنيد يحمل أوْجُهاً متعددة غلب على بعضها تيار الإفراط والغلو .. فكان للجنيد فضل إعادة الوجه الشرعي لعلم الإحسان الذي تفرع عنه الزهد، وعلم التصوف مرتبطا بأهل النمط الأوسط.

وللإمام الجنيد عدد من الكتب والرسائل في فقه الطريق إلى الله ، ومنها «السر في أنفاس الصوفية» و كتاب «الميثاق» وكتاب «دوائر الأرواح» وكتاب «أدب المفتقر إلى الله» ، وفيها إعادة صياغة التصوف على نمط التوسط الشرعي والاعتدال الواعي.

---

(١) يشار بهذا إلى أن للتصوف قواعد وتطبيقات ومصطلحات شأنها شأن العلوم الشرعية الأخرى، فعلم الأصول له قواعد وتطبيقات ومصطلحات، وكان أول واضع له الإمام الشافعي، وعلم الإيمان (العقائد) لها قواعد وتطبيقات ومصطلحات ومن رجال هذا العلم الإمامان الأشعري والماتريدي.

الإمام الغزالي حجة الإسلام (رجل القرن الخامس)

يعتبر الإمام الغزالي رحمه الله محرر التصوف عن الفلسفة ، وواضع قواعد الارتباط بين الشريعة والحقيقة على وجه الاعتدال المشروع ، وقد كان لاهتمام الإمام محمد بن محمد الغزالي بعلوم الشريعة ودراسته لها على شيخه الإمام الجويني المعروف بإمام الحرمين أثر في تمكنه من هذه العلوم ودقائقها .

ثم سعى لأخذ علوم شتى ينظر في صحتها وفسادها ، وأخذ هذا المنحى سنوات طويلة حتى خرج بنتيجة مفيدة خلاصتها أن المخرج والحل الصحيح هو التصوف الخالي عن الإفراط والتفريط ، وألف في هذا الأمر كتابه المعروف «إحياء علم الدين» كما ألف للمبتدئين «بداية الهداية» و «يا أيها الولد» ، وله كتابات في علم الفقه والتصوف والفلسفة الشرعية ، حفظ بها منهج أهل النمط الأوسط .

واستقر في أخريات حياته بطوس مسقط رأسه واتخذ مدرسة لتعليم علوم الشريعة ، كما اتخذ مأوى ورباطا للتربية الصوفية ، وكانت وفاته في يوم الاثنين ١٤ جمادى الآخرة ٥٠٥، وكا من المتأثرين به وبمنهجه الفكري جملة من العلماء منهم أبوبكر بن العربي[1] والشيخ عبدالقادر الجيلاني وغيرهم ، حتى إن الإمام الجيلاني ألف كتابه «الغُنية» على غرار ما كتبه شيخه الإمام الغزالي.

---

(١) وقد ألف تلميذه ابن العربي فيما بعده كتابيه «العواصم من القواصم» و «سراج المريدين» وانتقد فيهما منهجية شيخه الإمام الغزالي ، خصوصا فيما يتعلق بالجانب الفلسفي ومصادر المعرفة وذكر الأحاديث التي لا أصل لها ونحو ذلك.

الإمام عبدالقادر الجيلاني مؤسس الطرق الصوفية

كان عهد الإمام الجيلاني عهدا اتسم بالصراع الفكري والسياسي ، شأنه شأن المراحل التي سبقت ، وكان الإمام الجيلاني قد نشأ نشأة صوفية منذ نعومة أظفاره ، وأخذ علم الطريق عن شيخه أبي سعيد المخرمي، ولما هيأ الله له البروز وبنى المدرسة القادرية أقبل عليه الناس والطلاب من كل حدب وصوب ، مستأنسين بالأنفاس التربوية الصوفية ، واستطاع بحكمته وعلمه أن يضع قواعد بناء الطرق الصوفية كتشكيل اجتماعي شرعي يعزل بين التصوف والسياسة، ومن هذه القواعد:

١. أخضع التصوف للفقه ، فكل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة.

٢. منع الشريعة والتصوف أن يدوروا في فلك السياسة ، وأنكر على علماء السوء وعلماء السلطان.

٣. نفى العصمة عن الشيوخ لدى المريدين الغلاة لينظروا إلى شيوخهم من خلال بشريتهم الموجهة بالشرع.

٤. أنكر على المريدين مجالس السماع واستعاض عنها بمجالس القرآن ومدارس الفقه الإسلامي والعلوم الشرعية وجعل التروّح بالحضرات والذكر.

٥. صنف العديد من المؤلفات الخاصة بالطريق إلى الله وجعلها قاعدة المدرسة القادرية ، ومنها كتاب «الغنية» و «الفتح الرباني» وغيرها.

تفرع غالب الطرق الصوفية عن الطريقة القادرية

بـدأ ظهور الطـرق الصوفية ذات المسـميات المتعـددة بتخرج العشـرات من طلاب الشيخ عبد القادر الجيلاني وانتشارهم في الأفاق، وخاصة بعد عام حجته الأخيرة سنة ٥٠٥ هـ حيث أخذ عنه المئات من أطراف البلاد العربية والإسـلامية، وكان بهم انتشار الطـرق الصوفيـة وتفريعاتها، وفي هذه المرحلة كتب الشـيخ الإمام السَّـهْرَوَرْدِيّ كتابه «عوارف المعارف» وبسط فيه ضوابط التصوف ودقق مسائله وتوفي عام ٦٣٢هـ.

أمهات الطرق الصوفية

ظهرت الطرق الصوفية في القرنين السادس والسابع على النحو التالي:

١- الطريقة القادرية للشيخ عبد القادر الجيلاني (٥٦١هـ) القرن السادس.

٢- الطريقة الرفاعية للشيخ أحمد علي الرفاعي (٥٧٦هـ) القرن السادس.

٣- الطريقة الشعيبية المغربية لأبي مدين[1] (٥٩٤هـ) القرن السادس.

٤- الطريقة البدوية للشيخ أحمد البدوي (٦٧٥ هـ) القرن السابع.

٥- الطريقة الشاذلية للشيخ أبي الحسن الشاذلي (٦٥٦هـ) القرن السابع.

٦- الطريقة الدسوقية للشيخ إبراهيم الدسوقي (٦٧٦هـ) القرن السابع.

وقد أخذ الدسـوقي عن الشـيخ أحمد الواسطي خليفة الشاذلي في مصر، وكانت هذه الطرق هي رائدة التصوف في العالم العربي والإسـلامي خلال هذين القرنين ثم اتسـع الأخذ بالطرق الصوفية والكتابة عنها سلبا وإيجابا.

(١) تفرعت منها في القرن السادس الطريقة العلوية الحضرمية على يد الفقيه المقدم (٦٥٣هـ)، وتفرعت عنها أيضا الطريقة المشيشية لإبن مشيش المغربي شيخ الإمام الشاذلي (٦٢٩هـ) أي في القرن السابع.

تقسيم مراحل التصوف

المرحلة الأولى

تصوف المواقف

١- موقف الإمام علي رضي الله عنه من قرار الحكم بقبول الشورى.

٢- موقف الإمام الحسن بالتنازل عن قرار الحكم بنهاية مرحلة الخلافة النصية.

٣- موقف الإمام الحسين بالخروج عن الحرم تجنيبا لإسالة الدم فيه.

٤- موقف الإمام علي زين العابدين بالزهد في الأخذ بالثأر وقرار الحكم.

المرحلة الثانية

مرحلة أهل النمط الأوسط

مرحلة تصوف التجريد

ويتلخص في تلاميذ الإمام علي زين العابدين (ت ٩٥) ومن نحا نحوهم كسعيد بن المسيب (ت ٩٤) ، وسعيد بن جبير (ت ٩٥)، والزهري (ت ١٢٤)، والإمام محمد الباقر (ت ١١٤) وأخيه الإمام زيد (ت ١٢٢)، وعمرو بن دينار (ت ١٢٦)، والإمام جعفر الصادق(ت ١٤٨) ، وأبو حنيفة (ت ١٥٠)، والأوزاعي (ت ١٥٧)، وسفيان الثوري (ت ١٦١)، والليث بن سعد (ت ١٧٥)، ومالك بن أنس (ت ١٧٩)، وعبد الله بن المبارك(ت ١٨١)، والشافعي(ت ٢٠٤) ، وأحمد بن حنبل(ت ٢٤١)، وأبي الحارث المحاسبي (ت ٢٤٣) ، وشيوخ أصحاب الرسالة القشيرية[1].

---

(١) مؤلفها هو أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري النيسابوري الشافعي ، ولد سنة ٣٧٦هـ في شهر ربيع الأول في بلدة (استواء) ، وكان سكانها من العرب الذين قدموا خرسان ، وهو عربي من قبيلة قشير بن كعب ، أخذ أول مرة بقريته استوا، ثم رحل إلى نيسابور وارتبط بالشيخ أبي علي

المرحلة الثالثة
تصوف الأفراد

وهـم جملـة من صوفية السـياحة الأفـراد الذيـن اعتزلـوا المجتمع وتفرغـوا للعبادة والطاعـة فـي الكهوف والبراري ، ولـم يخل منهم زمان من الأزمنـة، وقد تناول العديد منهـم الشـيخ عبـد الكريم بن هوازن القشـيري في رسـالته ، مثل إبراهيم بـن أدهم (ت ١٦٢)، والفضيـل بـن عياض (ت ١٨٧) ، ومعروف الكرخـي (ت ٢٠٠) ، وذي النون المصـري (ت ٢٤٥)، والسَّـرِيّ السَّـقَطي (ت ٢٥١) ، وبشـر الحافـي (ت ٢٢٧)، والحارث المحاسـبي (ت ٢٤٣) تكـرر، وداود الطائي (ت ١٦)، وشـقيق البلخي (ت ١٩٤)، وأبي يزيد البسـطامي (ت ٢٦١)، وسـهل التسـتري (ت٢٨٣)، وعبد الرحمن الداراني (ت ٢١٥) .

المرحلة الرابعة
مذهبية التصوف

وبـدأت بالإمـام الجنيـد (ت ٢٩٧) ، حيـث وضـع قواعـد ومصطلحـات التصـوف المعتـدل، كان فقيهـا علـى مذهـب أبي ثـور، وتصدر للفتوى وهو ابن عشـرين سـنة ، وصحب خاله السَّـرِيّ السَّقَطي والحارث المحاسـبي ومحمد بن علي القصاب ، مات سنة (٢٩٧هـ).

الدقاق ودخل في زمرة مريديه وزوجه ابنته ، وعكف على طلب العلوم ، وكتب كتباً عديدة منها: «الرسالة القشيرية» و «لطائف الإشارات»، و «إحياء الأرواح»، و «المعراج»، و «الفصول»، و «اللمع»، وكتاب «التوحيد النبوي»، وكتاب «التيسير في علم التفسير»، و «ترتيب السلوك»، توفي يوم الأحد ١٦ ربيع الأول عام ٤٦٥هـ ودفن بجوار شيخه الدقاق.

المرحلة الخامسة

تحرير التصوف عن الفلسفة

وكان رائد هذه المرحلة الإمام أبوحامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزّالي (ت ٥٠٥) الذي واجه الفِرَق والنِّحَل المتنوعة كالفلاسفة والباطنية وغلاة علم الكلام وغلاة علوم الحقائق ، وصنف العشرات من المؤلفات المصحِّحة لمسيرة العلوم الشرعية ، وربطها بالحقيقة على الوجه المعتدل ، ككتاب «إحياء علوم الدين» و«منهاج العابدين» وغيرهما.

المرحلة السادسة

نشوء الطرق الصوفية

وبدأت بالإمام عبدالقادر الجيلاني (ت ٥٦١) واضع أسس الطرق الصوفية وكياناتها الاجتماعية، وقد فعل ذلك عندما لاحظ فشو الاضطراب السياسي وشمول الفتن في بلاده وما حولها ، فوقف موقفا عمليا يحفظ به من تهيأ له حفظه من الناس، وخاصة طلبة العلم الشرعي ومريدي الطريق إلى الله.

وأخضع التصوف لعلم الشريعة ، ومنع الصوفية من الدوران في فلك السياسة، وألزم المريدين طلب العلم وحفظ وتلاوة القرآن ، وعدم الاشتغال بالسماع الملهي عن ذلك ، وتفرع عن طريقته القادرية أمهات الطرق الصوفية كما سبق ذكره.

المرحلة السابعة
تعدد الطرق وفروعها

في هذه المرحلة تعددت الطرق في العالمين العربي والإسلامي بانتشار تلامذة أمهات الطرق ، وأسهمت هذه الطرق بادئ ذي بدء في حفظ الجل الأوسع من المريدين والسالكين والناسكين الذين حذوا حذو شيوخهم في فتح دور العلم ودور التسليك والتزكية ، بل وكان منهم من شارك في معارك الجهاد ضد الصليبيين والروس ومن قاتل مع العثمانيين في معاركهم في أوروبا ، إلا أن مرور الزمن وظهور التنافس بين أتباع بعض الطرق أفرز الاتجاه السلبي من طرفي الإفراط والتفريط ، وخاصة بعد أن وضعت كل طريقة لأتباعها من الطقوس والالتزامات ما يفرّدها عن غيرها ، فنشأ بذلك التنافس رغبة في الامتداد والاحتواء للأتباع .

ويصعب حصر الطرق الصوفية وتفريعاتها لكثرتها ، ولأنها ليست موضوع بحثنا ، فنحيل الراغب في ذلك إلى مراجع البحث ومصادر التدوين.

أول من كتب في التصوف

كان أول من كتب في التصوف الذي هو خلاصة علم الزهد والإحسان الإمام **أبوالحارث المحاسبي** (ت **٢٤٣**) صاحب كتاب «آداب النفوس».

ثم تلاه الشيخ **أبوسعيد الخراز** (ت **٢٧٧**) في كتابه «الطريق إلى الله».

ثم تلاه **الإمام الجنيد** (ت ٢٩٧) في كتاب «السر في أنفاس الصوفية».

ثم تلاه الشيخ **أبوعبدالرحمن السلمي** (ت **٣٢٥**) صاحب كتاب «آداب الصوفية».

ثم تلاه الشيخ أبونصر سراج الدين **الطوسي** (ت **٣٧٨**) صاحب كتاب «اللمع»، وهو أول كتاب مبوب في هذا الفن.

ثم تلاه **أبوبكر الكلاباذي** (ت **٣٨٠**) صاحب كتاب «التعرف لمذهب التصوف».

ثم تلاه **أبوطالب المكي** (ت **٣٨٦**) صاحب «قوت القلوب».

ثم تلاه **الأصفهاني** (ت **٤٣٠**) صاحب كتاب «الأربعين على مذاهب المتحققين من الصوفية».

ثم تلاه أبوعثمان **الهويجري** (ت **٤٦٥**) صاحب كتاب «كشف المحجوب».

ثم تلاه عبدالكريم بن هوازن **القشيري** (ت **٤٦٥**) صاحب كتاب «الرسالة القشيرية»،

ثم تلاه الإمام **أبوحامد الغزالي** حجة الإسلام صاحب كتاب «إحياء علوم الدين» و«منهاج العابدين» (ت **٥٠٥**)، وقد أدرك الإمامُ **الجيلانيُّ** (ت **٥٦١**) في شبابه الإمامَ الغزاليَّ في أخريات حياته وتأثر به فألف كتابه «الغُنْيَة» على نفس تبويب «إحياء علوم الدين».

وجاء من بعد الإمام الجيلاني الشيخ عمر **السَّهْرَوَرْدِيّ** (ت **٦٣٢**) وكتب كتابه المشهور «عوارف المعارف» على غرار ما كتبه من قبله مع تفصيل وإيضاح .

وكانت كتابة كل من هؤلاء الأشياخ مرتبطةً بما كان في المرحلة من وعي وفكر معتقدات ، إلا أنهم يجمعون على يربط التصوف بالكتاب والسنة ، ويعزون ما وضعه علماء الذوق والتصوف من التفريعات والتبويبات والمصطلحات إلى التوسع في الأخذ بهذا العلم والنظر في أهدافه وغاياته ، شأنه شأن علوم الإسلام والإيمان التي اعتنى بها علماء الملة ، ووسعوا فيها البحوث والدراسات .

ومنهـم من نـزع إلى الإفراط والتفريط ، ومنهم من ثبت علـى منهج الاعتدال.. منهج أهل النمط الأوسط.

وضع قواعد تربية المريدين عند أهل التصوف

من أسس التصوف وقواعده لدى شيوخ التربية التزام المريد المتعبد لله :

- شروط تطبيقات إسلامه بالأركان الخمسة علما ومعرفة وممارسة
- وتطبيقات إيمانه بالأركان الستة ممتزجة ببعضها ببعض

فينبثـق عـن ديمومتها واسـتمرارها اسـتئناس العبـد بعبادة ربه ، فيسـتغرق فـي إتمام شروطها وأركانها ومندوباتها وآدابها.

فيكون بذلك محط نظر الله ومحبته ، ويتحقق ذلك بأمور منها:

١- التزام الطاعة وحسن العبادة لله.

٢- دخول الخلوة[1] تحت نظر الشيخ.

٣- إماتة حظ النفس ومحاربة أثر الهوى والشيطان والدنيا.

٤- انصرافه عن الخلق بالكلية وإقباله على الله بكليته.

٥- الاسـتعداد للترقـي في مراتـب اليقين الثلاثة علما وعمـلا واعتقادا، وهي أساس الانطواء في ثمرات علم الإحسان.

(١) الخلوة الصغرى أو الخلوة الكبرى، فالصغرى أن يظل بين الناس معتزلا عنهم بقلبه مع ترتيب وقته غير مختلط بهم ولا مشارك في غفلتهم، والخلوة الكبرى الدخول في عزلة تامة عن الجميع مدة ما يقرره الشيخ لصفاء نفسه وصلاح حاله.

تربية النفوس أساس علم التصوف

يعتني علم الإحسان وما تفرع عنه من الزهد ومفهوم التصوف بدءاً ونهاية بمسألة النفس وعالمها المتلون والمتنوع.

والنفس أداة معنوية في تركيب الباطن الإنساني مرتبطة كل الارتباط بمطالب الجسد وشهواته ولها هيمنة قوية على الاختيار والسلوك والمواقف.

وأساس سلامة النفس سلامة العقيدة ، فنفس المسلم مهما كانت أحواله وأعماله فهي نفس استسلمت لمولاها ويرجى لصاحبها الخير، وبالإسلام تتهذب النفس وتترقى قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ .

فالكافر لا تستلم نفسه حتى يسلم، والمنافق لا تستلم نفسه حتى يتوب.

أنواع النفوس في مراتب الترقي

١. **النفس الأمارة** وهي النفس التي تقود صاحبها إلى فعل المعاصي وترك الطاعات ، وعدم التوبة والحسرة على ما فرط في جنب الله.
٢. **النفس اللوامة** وهي النفس التي تلوم صاحبها على فعل المعصية وتدعوه إلى التوبة وتجديد عهد الإنابة بينه وبين مولاه.
٣. **النفس الملهمة** وهي النفس التي يلهمها الله الصبر على فعل الطاعات والصبر عن فعل المعاصي والمنهيات.
٤. **النفس المطمئنة** وهي النفس التي استقرت على فعل الطاعات والفرح بها وعلى تجنب المعاصي وكراهية فعلها من غير انتكاس ولا ارتكاس..
٥. **النفس الراضية** وهي النفس التي اسلمت الوجهة إلى الله تعالى في التوكل عليه والرضاء بقضاءه وقدره والصبر على البلاء وشهود الحق في كل ما يجري من أمر الخير في أهله والشر فيمن ابتلي به مع التزام الذكر والشكر ودوام الفكر.

٦. **النفس المرضية** وهي النفس التي ترتقي إلى أعلى درجات عين اليقين وعلامتها الخروج عن عادة المثل في المشروب والمطعوم والتخلي عن الدنيا وجاهاتها، والرضا بالكفاف وعدم الانتصاف ويستوي عنده المدح والذم مترقيا في الخوف والرجاء وحسن الظن بالله على وجه الحقيقة.

٧. **النفس الكاملة** وهي النفس المتحققة بأعلى مراتب حق اليقين مشاهدة وكشفا وحالا ومرتبة ومقاما وقربا من الله وخوفا منه ورجاء فيه واستغراقا به وهي مرتبة الصديقية الكبرى.

مراتب علم اليقين

تثمر الديمومة لدى المريد والسالك على الطاعة وحسن العبادة وتجنب المنهيات وفضول الكلام ثمرات متدرجة تبدأ بعلم اليقين ثم عين اليقين ثم حق اليقين.

تعريف علم اليقين

ظهور آثار العلم والعمل الشرعي في سلوك المريد والسالك وبروز علامات التوكل والرضا في تدرجه التربوي والمعرفي مستيقنا سلامة ما يدعى إليه وما يلزم بتطبيقه وفق النصوص الشرعية والإرشادات الأبوية.

تعريف عين اليقين

الإيمان المجرد الصرف الذي لا ينقضه شك ولا ريب فيما يسمعه ويقرؤه من علم الحقائق وما يبلغ إليه أهل المراتب العليا من الأحوال والمقامات والكرامات وانفعال الظواهر دون اعتراض ولا افتراض وتلمع في قلبه لوامع الجذب الإلهي وورود التنزلات القلبية والقالبية من خلال الطاعة والأعمال الصالحة، وهو المعنى الأول لمفهوم الحديث القدسي: «**ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا**

أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ... إلخ».
والمقصود به في هذه المرتبة استيحاش النفس من كل ما يخالف الشرع سمعا وبصرا وكتابة وسيرا بين الناس.

تعريف حق اليقين

انكشاف حجب البصيرة عن كثافات النفوس خلال ترقيها وكمال استسلامها لباريها وقبول ما يظهر للمراد من كشف ولمعات نورانيات ومكافحات يقينية خارقة مع الأدب الظاهر والباطن، وهو المعنى الثاني للحديث القدسي «**كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها ..الحديث**».

شروط الدخول إلى العلوم الثلاثة

موت النفس والرضاء بالقضاء والقدر والانطراح الكلي للمشيخة والدوام على حسن التلقي والترقي وملازمة التوقي.

حسن التلقي

قبول التوجيه والتسليك المؤدي إلى موت النفس ورياضة الروح والقلب والعقل وحسن التزامهما بالمأمور به واجتناب المنهي عنه (عبادة ـ وعادة ـ وعلما ـ وتربية)

حسن الترقي

دوام واستمرار الزيادة في الأعمال والطاعات وطلب العلم النافع تحت توجيه الشيخ ونظره مما يؤدي إلى ضبط وظائف الأوقات وملئ شواغرها، وإصلاح الباطن وتصفيته.

ملازمة التوقي

محافظة المريد والسالك على تجنب المعاصي والمخالفات الحسية والمعنوية من صغائر وكبائر وموبقات، فالمحافظة على ما ذُكر مقياس الوصول إلى الله، وإهمال ذلك أو التشاغل عنه من غير توبة ولا رجوع انقطاع وحرمان.

شروط التحقق بمراتب اليقين الثلاثة

١- إطابة المطعم والتوقي من الشبه في المال والحال والعيال.
٢- إسقاط هم الرزق وطلبه وعدم النظر لما في أيدي الناس.
٣- دوام الطاعة والعبادة مع الانكسار والخضوع لله في كل الأحوال.
٤- التجريد الكلي في التوكل على الله.
٥- ترك فضول الكلام والخوض فيما لا يعنيه.

ثمرات العلوم الثلاثة
علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين

بفضل من الله وعطاء سرمدي يهب الله للعبد المحض مرتبة العرفان .. وهي ما يطلق على العبد فيها .. العارف بالله، ومرتبة الصديقية الكبرى.

والعارف بالله يستوي عنده الفقر والغنى والمدح والذم، والإقبال عليه والإدبار عنه ويشهد الحق في كل فعل وحادث وقضاء وقدر ولا تُكَيَّف هذه المرتبة بالألفاظ والشرح وإنما هي سر من أسرار الله في خاصة خلقه.

مقامات السالكين

١. **المقام الأول مقام «التوبة»**: ومن لا توبة له لا مقام له، والتوبة أصل المقامات وبها يرث السالك أو ل مدارج المقامات والأحوال.
٢. **المقام الثاني «الورع»** : وهو كمال الاحتياط في الأخذ والعطاء والمعاملة ويثمر الحال الوهبي وهو الشوق وثمراته ارتياح القلب بالوجد ومحبة اللقاء بالقرب.
٣. **المقام الثالث «الزهد»** وهو الزهد في الامتلاك ومجانبة كل حرام وشبهة وتعريفه خشوع النفس وخضوعها.
٤. **المقام الرابع «الصبر»** وهو ارتياض النفس على أعمال الطاعات والتقلل من حلال الشهوات والصبر على ترتيب وظائف الأوقات .. ويورث الأنس بالله.
٥. **المقام الخامس «مقام الفقر»** وهو التجرد الكلي عن اكتساب مطالب الحياة وزوال الطمع فيما في أيدي الناس .. ويثمر قرب العبد بإيمانه وتصديقه ثم بإحسانه وتحقيقه.
٦. **المقام السادس «الشكر»** وهو شكر النعم وصرفها في طاعة الله مع تعظيم حق المنعم وصدق الالتجاء إليه وعلامته وجود الهيبة في القلب مع عدم النظر لما سبق منه من الأعمال الصالحة.
٧. **المقام السابع «الخوف»** وهو استشعار الخوف من غضب الحق مع دوام المراقبة للترقي في طلب رضاه ويسمى استيلاء سلطان الحال على القلب.
٨. **المقام الثامن «الرجاء»** وهو حسن الظن بالله وتلاشي القنوط المفضي إلى اليأس والإحباط وثمراته الوصول إلى الله فلا يكون همه وشغله غير خالقه..
٩. **المقام التاسع «التوكل على الله»** وهو التفويض لله تعالى في كافة أموره وترك تدبير النفس والانخلاع عن الحول والقوة، ويورث الفناء وهو سقوط الأوصاف المذمومة، وصاحب الفناء مستغرق بالحق عن الخلق (ومن يتوكل على الله فهو حسبه).
١٠. **المقام العاشر «الرضاء»** وهو كما ل التسليم لله والفرح بما أعطاه ومنَّ به عليه من نعمة الإسلام والإيمان : «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام**

دينـا » ويثمـر مقام البقاء وهو بقاء الصفات المحمودة بعد فناء الصفات البشـرية المذمومـة، وصاحـب البقاء يرتقـي إلى مقام لا يحجبه فيه الحـق عن الخلق ولا الخلق عن الحق.

التعريفات ومصطلحاتها عند الصوفية

وضع علماء التصوف لهذا العلم قواعد وتعريفات ومصطلحات ينضبط بها سير المريد إلى الله ومنها:

تعريف الشريعة والطريقة والحقيقة

الشريعة كالسفينة والطريقة كالبحر والحقيقة كالدر واللآلئ، فمن أراد الدرر ركب السفينة ثم شرع في البحر بشروط الشروع ثم وصل إلى الدرر بأسباب الإيصال.

والشريعة إقامة أحكام فيما أمر الله ورسوله به من العبادات وأعمال الطاعات كالوضوء والصلاة والصوم والزكاة والحج وطلب الحلال وترك الحرام وغيرها من الأوامر والنواهي.

والطريقة قطع المفاوز والمسافات بالأخذ بأسباب التقوى والقرب من الله على حسب نظر المشايخ في التسليك، وأما الحقيقة فهي الوصول إلى المقصد وإليها يشير الحديث الذي قال فيه صلى الله عليه وآله وسلم لحارثة: «**لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك فأجاب وقال صرفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حجرها ومدرها وذهبها وفضتها وأضمأت نهاري وأسهرت ليلي**» رواه الطبراني وعبد الرزاق وابن عساكر وغيرهم.

وفي فقه علم الساعة:

الشريعة يقابلها الذكر

والطريقة يقابلها الفكر

والحقيقة يقابلها الشكر.

الذكر ذخيرة السالكين

الذكر هو عدة السائرين بالمقامات القلبية إلى الله تعالى وعدة الكاملين في مقامات الوصول الروحانية المعبر عنها بلطائف الأحوال والأنفاس الموصلة إلى الله سبحانه وتعالى.

ولا يصل أحد إلى الله سبحانه وتعالى إلا بذكره لأنه منه بدأ وإليه يعود: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ .

والذكر يوصل الذاكر إلى المذكور بل يجعل الذاكر مذكور قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ .

أقسام الذكر

١. ذكر بالأقوال وهو الاستغفار بعد المعصية.
٢. ودوام اللهج بالذكر: ﴿ **وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴿١٣٥﴾ ﴾.
٣. وذكر بالأعمال من مثل قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾.
٤. وذكر بالأحوال: وهو الذكر بالشوق والمحبة وطي مسافات السير إلى الله قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.، وقوله في الحديث القدسي: «**من تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة، وإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه**» وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من عطاء الذهب والفضة وأن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قال: ما ذاك يا رسول الله؟ قال: ذكر الله**».

ولأهل التصوف تعريفات ومصطلحات كثيرة جعلوها أساس الترقي في مراتب الإحسان، ولكنا تجاوزنا تناولها هنا لعدم الحاجة إليها من جهة، ولانعدام الترسم بها في المرحلة الغثائية من جهة أخرى.

ويمكن التعرف عليها من خلال كتب القوم الشهيرة كـ «الرسالة القشيرية» وغيرها.

نماذج الصوفية

١- **أهـل العزمات**: هم الأفـراد الخارجون عن المألوف إلـى درجة الإفراط الذي لا يقتدى بهم، ومنهم بعض أصحاب الطريقة القشيرية .

٢- **أهل التجريـد**: المتوكلون على الله في سـرهم وجهرهم وأرزقهم وكافة أمورهم الدينية والدنيوية مع عدم التعلق بالأسباب.

٣- **أهل الأخذ بالأسـباب**: هم الذين يربطون بين التوكل والأسباب والتمتع المشروع (اعقلها وتوكل).

٤- **الإفـراط المذمـوم**: الذين نزعـوا بتصوفهم نحـو الغلو في علـوم الحقائق ووقعوا في مسببات الالحاد والزندقة والحلول والاتحاد.

٥- **التفريـط المذمـوم**: وهـم الذيـن أسـقطوا العمـل بالطاعـات والعبـادات وأوّلوها إلى تأويلات تعطل وظائف الشـريعة والعقيدة ومراتب السـلوك .. كالباطنية والقرامطة.

الصوفية والمتصوفة

الصوفية أو الصوفي: من انطبقت عليه شـروط حسـن التلقي والترقي والتوقي تحت نظر شيخ حاذق مربي.

المتصوفـة أو المتصوف: من تشـبه بأهـل التصوف فـي اللباس والحركة والانتسـاب الإسمي من غير تحقق بالمراتب المذكورة.

الطرق الصوفية

الطرق الصوفية هي التركيبات الاجتماعية الشـرعية لأتباع منهج النمط الأوسط ممن ينتمي إلى ما يلي:

١- المذهبية الإسلامية (إسلام إيمان) المعتدلة من غير إفراط ولا تفريط.

٢- الصوفية (الاحسان) من غير إفراط ولا تفريط.

٣- حب آل البيت المعتدل (ولاء وانتماء) من غير إفراط ولا تفريط.

وأما الطرق التي نحت إلى الإفراط والتفريط فهي طرق صوفية لكنها لا تنتمي إلى أهل النمط الأوسط، ولا يعتبر جنوحها وإفراطها أو تفريطها حجة على التصوف المعتدل الحامل لهذا المسمى الشرعي (أهل النمط الأوسط)، فلكل وجهة هو موليها.

العوامل والأسباب التي ساعدت على الأخذ بالتصوف واتساع طرقه وأتباعه

لما كان التصوف فرعا من الزهد ، والزهد فرعا من الإحسان ، وأصل التصوف المواقف التي اتخذها آل البيت وكبار الصحابة والتابعين وتابعي التابعين أمام التحولات السياسية المؤدية إلى الوقوع باللسان في الذم واليد في الدم ، وما يترتب على ذلك من اختلاف وجهات النظر بين الفرق والجماعات ، وتفاقم الصراع خلال مرحلة مقتل الخليف الثالث والرابع ، وما ترتب على المرحلة الكربلية وما خلّفته من دماء وعدوان ؛

لما كان كل ذلك ظهر تيار الزهد المعبر عن موقف أئمة آل البيت ومن تبعهم من الصحابة والتابعين على صفة السكون وتجنب المصادمة مع أصحاب القرار السياسي، حفظا لدماء المسلمين ،

واتجاها للعناية بالميراث النبوي من العلم والتدين السليم عن شوائب الفتنة على مدى الأزمان التلاحقة منذ ذلك الحين ،

حتى دخول التتار المغول إلى بغداد في ٩ صفر ٦٥٦ وإسقاط الخلافة العباسية في عهد الخليفة المستعصم بالله ،

وتدمير كافة مظاهر الدولة الإسلامية ، وقتل الآلاف من المسلمين ، وحرق الكثير من المؤلفات القيمة في مختلف العلوم،

فشارك العديد من صوفية المرحلة في محاربة الغزو المغولي ثم الغزو الصليبي ، وكان من أولئك القائد العثماني محمد الفاتح وجملة من حكام وأمراء الدولة ، الذين ارتبطوا بمنهج التصوف ، وكذلك القائد صلاح الدين الأيوبي.

وصار التصوف رائد الجهاد في سبيل الله من جهة ، وحامي راية منهج النمط الأوسط من جهة أخرى ، قائماً على محاربة الغزاة مع المحافظة على بيضة الإسلام من صراع المذاهب والفرق المتناحرة خلال المرحلة العثمانية حتى مرحل ضعف الدولة العلية .

وفي هذه المرحلة بدأ الضعف الفكري والذوقي يعم الطوائف الصوفية ، ونحا البعض إلى الإفراط والبعض إلى التفريط ، ولم يسلم من ذلك إلا القليل القليل .

وظـل هذا الحال منـذ ضعف الدولة العثمانية حتى ظهور المرحلة الغثائية بسـقوط دولة الخلافة .

وأثناء هذه المرحلة بدأت الحملات الاستشراقية على الإسلام كله ، واشتدت الحملات عـلى التصوف والصوفيـة رغبة في تفكيك تركيباتها الاجتماعيـة التي ظلت تحمي المجتمع الإسـلامي من الاخـتراق ، وذلك بإعادة ترتيـب حملة قرار الحكم والعلـم الذين التزموا بالتخطيـط الاسـتشراقي في نقـض عـرى المذهبية والتصـوف ومحبة آل البيـت ، وتحجيم عيوب ونقائص وإفراطات وتفريطات بعض الصوفية بالدراسـات والبحوث المغرضة ، حتى تحقق لهم المطلب من خلال التركيبات السياسية والدينية والفكرية الجديدة.

المحاذير المحسوبة على غلاة التصوف

تنـاول المعترضـون على الإفـراط أو التفريـط في منهـج التصوف بالنقـد والتجريح للظواهر التالية:

١. اعتقاد غلاة الصوفية ثبات العقيدة بالإلهام والوحي الخاص للأولياء.
٢. الاتصال بالروحانيين من الجن ، وتسخيرهم والاعتقاد في ضرّهم ونفعهم.
٣. عقيدة الحلول ، وهي القول بأن الصوفي الكامل تتجسـد فيه صفات الربوبية عن طريق التدرج في مراتب بالترقي.
٤. القول بوحدة الوجود ، كقولهم : ليس في الوجود إلا الله ، وما ظواهر الكون في الإنسان والحيوان والأكوان إلا مظاهر تعكس حقيقة واحدة هي الحقيقة الإلهية.
٥. مظاهـر تقديس الأمـوات والإفراط في التعلـق بذواتهم الميتة والقـول بعودتهم للحياة.
٦. الاعتماد في تفسير الظواهر على الخوارق والأقاويل الخرافية.
٧. إظهـار الصلـة بالقـوة الروحانية مـن خرق العادة بـأكل الجمـر والزجاج وحمل الثعابين وطعن الأجساد ومخالفة ظاهر الشريعة.
٨. إسـقاط البعض العمل والاعتقاد بعدم وجوب الصـلاة والصوم والحج على من اكتملت مراتب يقينه ، وتأويل المأمورات الشرعية بما لم ينزل الله به من سلطان.
٩. الحركات المشـينة كالرقص والتهتك والصراخ المفضي إلى سـقوط هيبة الشرع الشريف ، والتشبه بطقوس النصارى واليهود في كنائسهم وبيعهم.

وقـد انتقـد رجال التصـوف الأثبات من أهل النمط الأوسـط كافة هـذه المحاذير ، ووصفوا أصحابها بالجنوح والزندقة ، وتبرؤوا من الآخذين بها والمترسـمين بآرائها الباطلة.

نداء إلى صوفية النمط الأوسط

لقد صار من الواجب المتحتم على من ارتبط بهذا المنهج الإسلامي المسند أن يعيد النظر في الحالة التي يعيشها منهج التصوف النمطي بخصوصه من حيثيات كثيرة، ومنها:

١- حالة الإفراط البشعة في الغلاة.

٢- حالة التفريط البشعة في الجفاة.

٣- حالة الغفلة في المنتسبين للنمط الأوسط، وضرورة إحياء منهجية الاعتدال فيهم.

فهذه الحالات صارت غرضا مقصودا لأضداد مدرسة التصوف الإسلامي، تهدم في كيانه وتقوضه من قواعد بنيانه، ونحن اليوم في تصوفنا المرحلي لا نرى في مجموع طرائقنا المشتهرة شروط الأخذ بعلوم الإحسان على وجهها الصحيح، حتى لو بقي ثمة من الأشياخ المترسمين بمسمى الطريقة وحفظ عهدها الذوقي فإنه لا يملك أمر أتباع قد انغمسوا في حضارات المراحل وأخذوا علوم الزمان بأساليب مقطوعة الصلة عن التسليك الصوفي الخاص.

وربما نقر ببقاء الولاء الخاضع للتصوف وشيء من الانتماء الاجتماعي المتداعي، مع ضعفٍ بادٍ في مسألة الوعي واستيعاب مهمات المرحلة وشروط البقاء لهذا المنهج الوسطي المعتدل.

لقد سرقت المداس المناوئة مسمى الوسطية الشرعية لنفسها، ورمت علة الإفراط والتفريط على المدرسة الصوفية دون استثناء، ولم نر من أتباع الطرق الصوفية غِيرةً على استعادة الحق المشروط، وإنما نرى دفاعاً مستميتاً على العادات والتقاليد وكأنها شرعة أبي القاسم صلى الله عليه وآله وسلم.

فهل من غيور على الإسناد والعدالة؟ وهل من قارئ ينظر في القراءات الاستباقية لصاحب الرسالة؟ ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ .

الخاتمة

لا يـزال التصـوف إلـى اليوم يعيـش تناقضات جمـة في أتباعـه ، وبهـذه التناقضات والمتناقضات تبنت المدارس المعارضة للتصوف حملات التشويه والتشريك والتبديع ، مع أن مدارس المعارضة في حقيقة تطبيقاتها محشوة بعلل الإفراط والتفريط من نواح كثيـرة إلا أن علـة المنافسـة والتحريش طغت على أسـلوب المعالجات ، فاتخذت من الفعل ورد الفعل وسـيلة للصراع المحتدم عبر التاريخ ، وبهذه القاعدة السـلبية يصعب التمييـز بين الأنماط السـليمة وغيرها مـن الأنماط المعلولـة ، إلا إذا جعلنا أهل النمط الأوسط أساس القياس للسلامة والاعتدال.

ولهـذا فـإن دراسـتنا هذه تميزت بإبـراز دور أهل النمط الأوسـط وتعميد تسلسـلهم الشرعي سندا وعدالة ، بعيدا عن الالجفاء والغلو المتداول بن الفرق كلها ، مع الإشارة إلى ما وضعه أهل التصوف العدول من التعريفات والمصطلحات لهذا العلم الشـرعي الهـام ، وقد بسـطنا في كتابنا هذا ما تيسـر لنـا من الضوابط والقواعـد باختصار ، ومتى مـا رغب الباحث في الاطـلاع على ما كتب في هذا العلم أصـولا وفروعا فليرجع إلى أمهات كتب التصوف المبسوطة.

نسأل الله أن يجعل ما صغناه وسيلة لرأب الصدع بي المسلمين ، وتقريبا علميا لفهم مبدأ التوسـط والاعتدال المشـروع في مسيرة علم الإحسان المرتبط موضوعا ومشرعا بـأركان الديـن الأربعة المسـتنبطة مـن حديث جبريـل المعروف لدى علمـاء الأصول بحديث أم السنة .

والله من وراء القصد..

أبوبكر العدني ابن علي المشهور
جدة المحروسة ١٣ جمادى الأول ١٤٤٠هـ

الفهرس

هٰذا الكتاب

- ربط شرعي بين ثوابت الدين ومتغيراته على ضوء دراسة أركان الدين الأربعة مجتمعة لا متفرقة.
- تأصيل مفهوم التصوف وربطه الشرعي بالركن الثالث (الإحسان) وعزل مفاهيم الإفراط والتفريط عن منهج أهل النمط الأوسط
- إحياء منهجية النمط الأوسط وسندها المتصل إلى عهد تصوف المواقف النابع من سلوك الخلفاء الراشدين المهديين.
- إعادة هيكلة المسيرة الصوفية الذوقية على الوجه الشرعي في التسلسل السندي المتصل بأهل العدالة.
- عرض المفاهيم الصوفية الذوقية للاطلاع عليها، بصرف النظر عن تحقيقها في هٰذا العصر أو عدم تحقيقها.
- نداء لصوفية النمط الأوسط لمعالجة العلل الطارئة في التراكم الزمني، والعود إلى صافي الديانة الشرعية، بعيداً عن الغلو والجفاء.

